عبد القاهر الجرجاني في دراسات النقاد العرب المحدثين

الدكتور: كراش بن خولة

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

تمحور هذا البحث حول شخصية عبد القاهر الجرجاني العلمية، وما ظهر من هذه العبقرية الفذّة، فقد كانت ثقافته عميقة جعلته يحيط بالفكر الإسلامي والعربي إحاطة الخبير في جميع نواحيه، في اللغة والأدب والدين والمنطق. جعل من الماضي الثقافي لحصيلة أربعة قرون خلت قبله، مادة يشكل منها حاضرا ومصيرا، عايش السابقين ليكون منهم ومعهم، وانتهت إليه علوم عصره، فنفخ فيها من روحه العلمي، وطور مناهجها، ودفعها إلى الأمام آمادا بعيدة، وأصبح من صفوة العلماء الباحثين والدارسين المحققين، ومن جهابذة اللغة العربية وحماتها منهجيا وتطبيقيا، يحرص على إثبات عبقريتها وجماليتها بتعزيز من النظم والإعجاز.

الكلمات المفتاحية: عبد القاهر الجرجاني؛ الفكر الإسلامي؛ اللغة؛ الأدب؛ النقد؛ البلاغة؛ النظم؛ الإعجاز؛ الثقافة.

Abd al-Qaher al-Jarjani in the Studies of Modern Arab Critics

Abstract: This research centered on Abd al-Qaher al-Jarjani's scientific personality, and what emerged from this exceptional genius, as his deep culture made him surround the Islamic and Arab thought, the expert's briefing in all its aspects, in language, literature, religion and logic. He made out of the cultural past of the sum of four centuries before him, a subject from which he would shape a present and a destiny, He lived with the former ones to be of them and with them, and ended to him the sciences of his era. So, he breathed into it from his scientific spirit, developed its curricula, and pushed it forward for long periods, and he became one of the elite researchers and investigative scholars, and among the pundits of the Arabic language and its protectors, methodologically and practically. He is keen to prove its genius and aesthetics by strengthening the systems and miracles.

Keywords: Abd al-Qaher al-Jarjani, Islamic thought, language, literature, criticism, rhetoric, systems, miracles, culture

مقدّمة: قاربت الدّراسات الحداثيّة جهود عبد القاهر الجرجاني(471هـ ـ 1078م) في كتابيه: "الأسرار والدّلائل"، وانتهت إلى أنّ هذه الدّراسات ما زالت تحتفظ بالكثير من مظاهر الجِدّة، لكونها لم تنطلق من معايير قارّة وساكنة، أو تصوّرات منغلقة على ذاتها، وإنّما انطلقت من

تاريخ تسليم البحث: 16 سبتمبر 2016.

تاريخ قبول البحث: 15 مارس 2017.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

النّص ذاته، وإليه تعود، وجعلت القراءة مفتوحة على الممكن، وهو ما أعطاها السّبق الزّمني، والظّهور المتميّز في الدّراسات النّقديّة الحديثة، بل تقاطعت والدّراسات التي تهتم بنظريّة الأدب، مقاربة وتنظيرا، أو إجراءً وتحليلاً.

واستطاع عبد القاهر الجرجاني بذلك أن يجُول بالمقاربة المنهجيّة إلى أبعاد غير معهودة في دراسة الأدب واللّغة، بحصافة الرّأي، وخصوبة الفكرة وحضور التّأثير، والمشاركة في عمليّة التّواصل الفكري، والبحث والتنقيب عن خفايا الأدب ودلالاته اللغوية والبلاغيّة والفنّية عامة . أعطى بها للثّقافة العربيّة خلاصة جهد أوفى بها إلى الكمال، فكان عطاؤه تراثا إنسانيّا رائدا في اتّجاهات التّطور في حقول البحث اللّغوي وفروعه .

والحقيقة أنّ العودة إلى الجرجاني هيّ عودة إلى مقاربة لم تفقد جدّتها، مقاربة تثير من التّساؤلات أكثر ممّا تقدم أجوبة قاطعة، مقاربة تفتح باب الاجتهاد وتتركه كذلك، ولم يحاول إغلاقه إلاّ بعض المتأخّرين، وهكذا فعندما نحاول الاجتهاد مرّة أخرى، فإنّنا نعود إلى سنّة عريقة في البلاغة العربيّة، فما تزال الإشكالات التي أثارها عبد القاهر الجرجاني بشأن الاستعارة، تحتفظ إلى اليوم بالكثير من طرافتها وجدّتها .

لقد كان وهما ما تصوّرناه، ونحن واقعون تحت تأثير النّقد الاجتماعي والنّفسي والتّاريخي والانطباعي، من إمكان تجاوز البلاغة العربيّة القديمة باعتبارها قواعد "جامدة" وإذا كانت هذه البلاغة قد فقدت الكثير من المواقع في المؤسّسات التّعليميّة، فإنّ ثورة علوم اللغة وما أعقب ذلك قد نبّه الأذهان إلى أنّ البلاغة العربيّة لن تموت وخاصّة إذا كانت بحجم بلاغة الجرجاني، حيث أعاد الدّرس الحداثي، وخاصّة البلاغة الجديدة جهود عبد القاهر الجرجاني من الهامش إلى المركز، ومن النّسيان إلى الحضور المتميّز الذي يجعل من البلاغة حِصْنًا للذّائقة الجماليّة، التي لا يكون النّص نصًّا إلاّ بها، وهو ما جعل جهود عبد القاهر تتبلور حول هذا المفهوم الجمالي الجدلي .

لقد أثبتت الدّراسات الحداثيّة على اختلاف مشاربها وتنوّع مصادرها، أنّ مفهوم القطيعة الإبستيميّة لم يعد له من مبرّر، اللهم إلاّ الانطلاق من مبرّرات أيديولوجيّة، لا تصمد أمام التّحليل أو التّفكيك، خاصّة مفهوم القطيعة المزدوجة بشقّيْها المعرفي والتّاريخي، بل إنّ الدّراسات الحداثيّة أعادت عبد القاهر إلى الواجهة مرّة ثانيّة، ليعود حضوره مطلًّا من هذه النّافذة، نافذة التّحليل الجمالي للاستعارة، أو التّحليل الأسلوبي للنّص، باعتباره كلّا غير منفصل بعضه عن بعض، كما أكّد عبد القاهر غير ما مرّة، كُلّما استدعته الضّرورة إلى ذلك.

لقد علّمنا عبد القاهر الوعي بإشكالية التّعامل مع التّراث فهو لم يقبل منه إلاّ ما يتلاءم وروح العصر، بما يجعله ساريًّا في الزّمن، كذلك علّمنا أن لا ننظر إلى التّراث على أنّه كيان موحّد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منغلق على ذاته، يُقبل كلّه أو يُرفض كلّه، إنّ تراثنا هو حصيلة ما حقّقه الإنسان العربي على مدى التّاريخ من نجاح وإخفاق، ومن انتصار ومن انكسار، فقراءة النّص القديم لا تحقّق تأثير الماضي في الحاضر فقط، بل تأثير الحاضر في الماضي بالقدر نفسه، فنحن عندما نقرأ نصّا لعبد القاهر عن الصّورة الشّعريّة فلا بدّ أن يؤثّر في فهمنا المعاصر للصّورة لُغويًّا وبلاغيًّا، ويضيف إلى الإشكالات التي عالجها عبد القاهر إشكالات أخرى يطرحها ذوق العصر، فكلّ قراءة كما هو معلوم - في اللسانيّات العامّة - هي تفكيك لرسالة قائمة بذاتها، وما التّراث إلاّ موجود لغوي قائم الذات باعتباره كتلة من الدّوال المُتراصفة - كما يقول عبد السّلام المسدّي -، وإعادة قراءته هي تمديد لتفكيك رسالته عبر الزّمن، وهي بذلك إثبات لديمومة وجوده، فكما أنّ الرّسالة اللّسانيّة عند بثّها، قد تصادف أكثر من مُسْتَقبِل واحد، فيُفكِّكُها كلّ حسب أنماط جداوله اللّغويّة، فكذلك تتعدّد القراءة زمنيّا بتعاقب المستقبلين للرّسالة أو المفكّكين لبنائها عبر محور الزّمن والتّاريخ .

ومن هنا فدراسة عبد القاهر والوقوف على جوانب فكره، هي في الحقيقة لإعادة بعث التّراث النّقدي والبلاغي، والكشف عن عناصر الجِدّة والحداثة فيه، إذا فهمنا أن الحداثة ليست وجودا في الزّمن، بقدر ما هيّ وجود خصائص في النّص، لا لنقرأ الحاضر بالماضي بل إنّ شرعيّة الحاضر هيّ التي تؤسّس لشرعيّة الماضي، كون الدّراسات النّقديّة والأسلوبيّة المعاصرة، لا تعدو أن تكون الآنيّة الجديدة لاحتواء الشّراب القديم، لذلك اتّجه التّفكير إلى دراسة أعمال عبد القاهر الجرجاني من قبل نخبة من الباحثين والنّقاد العرب بعناية خاصة، بوصفها استكشافًا إبداعيًّا رافق مسيرة الأدب التّاريخيّة في نشأتها وتطوّرها . وقد استوجب فهم ذلك تحديد مواطن الابداع في الجانب التّنظيري الذي شدّ انتباههم أمدا بعيدا بكثير من الفضول والاهتمام، ويؤول تركيزهم الفكري في شموليته إلى عنايتهم بنظريّة النّظم التي تؤلف في مفهومها جدليّة التّوافق بين النّسق الأدبي والنّسق في طبيعة البحث ومنهجه.

وفي ضوء هذا التصوّر استقطب عبد القاهر عناية الباحثين من زوايا نظر مختلفة، منهم اللساني، ومنهم البلاغي، ومنهم نحو النّص، ومنهم الأسلوبي، وكان تلقي الدّارسين لعبد القاهر من منظور الاهتمام المتغيّا، وكذلك فإنّ حداثة عبد القاهر تكمن في هذا الاستقطاب المنفتح على عوالم غير متناهيّة، وهو ما جعله صاحب السّبق الحداثي في تلمس (الدلائل) وتذوّق (الأسرار) التي انغلقت على الكثير من الحداثيين أنفسهم.

من هذه الزّاويّة تستقطب كتابات عبد القاهر الجرجاني اهتمام العلماء في مجال البحث البلاغي والأدبي معًا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ دراستنا للتّراث تعني الوفاء للذّات، وإنّ تعزيز هذا الوفاء لا يأتي أكله كاملاً، إلاّ باستجابتنا لروح العصر كلازمة أساسيّة لمفهوم الاستحداث، الذي أصبح يحيط الإنسان العربي بهالة من أسباب الرّخاء الحضاري والفكري والعلمي، ممّا يدفع به إلى البحث عن الذّات وسط معترك الأحداث التي تتوزّع بين التّقاطب والتّفاعلي من خلال ثنائيّة الثّابت والمتحوّل، وكان شرطا عليه أن يلتفت إلى كل هذا بحتميّة الاعتبار، ويدرك ضرورة التزوّد من الفعل الماضي، أهميّته في توجيه الحاضر، فيقوم عُنْصُرَا الأصالة والتّراث في مظهرهما الإنساني في عامل السّبق والإبداع لأسس الحضارة ومنطلقاتها، سواء كانت هذه الأسس ماديّة أم روحيّة وفكريّة لنِتاج أدبي ولغوي وفنّي، في عالم الصّراع الحضاري العنيف المحتدم بجداله المطّرد بين القوميّات والبيئات المختلفة .

بهذا التصوّر الشّمولي، يمكن للتّراث الأدبي والنّقدي في الرّقعة العربيّة من هذا العالم، أن يقوم عند أمثال عبد القاهر الجرجاني على دعائم من الأصالة والتّميّز من جهة، وعلى أساس من المقارنة العالميّة والشّهرة العلميّة من جهة أخرى، ويستجيب إلى إقامة التّوازن بين المنهج العربي والمنهج الغربي، الذي قد يظهر أحيانا عند أصحابه، بنزعة الاستعلاء العالقة بذهنيات بعض الغربيين في العصر الحديث، فجعلتهم لا يقيمون لجهود الآخرين وزنًا، ولا يقوّمون تراث غيرهم تقويما موضوعيّا، وأصبحت مناهجهم تمثّل القياس الوحيد لمحاكمة حضارات غيرهم بالضّعف والدون، حتّى لا تنال حظّها من المنهج، وحقّها في المشاركة والحضور، شهادتها في بناء التّراث الإنساني وسط زخم الزّحف الحضاري الموازي للمسيرة التاريخيّة لثقافة الأمم وآدابها، ومنها الأمّة العربيّة الإسلاميّة التي تعرض تراثها لمباضع التّشريح في غيّاب الموضوعيّة ليظهر في صورة مشوّهة .

إلاّ أنّ الوجاهة الموضوعيّة لمقاربة أي جهد، سوف تضَعُه على المحك بمعايير تصلح حكَمًا على أي نص كان، وهو ما جعل جهود عبد القاهر في الدّراسات ذات التوجّه الموضوعي، أن تنصف جهوده، وتضعه في مصاف الإنجازات العالميّة في مجال الدّراسات الأسلوبيّة والبلاغيّة، بل في الدّراسات الجماليّة، متى ما تحقق شرط الكفاءة العلمية والجدارة الموضوعيّة.

من أجل جاء ت مقاربتي الموسومة ب: **"عبد القاهر الجرجاني في دّراسات النّقاد العرب المحدثين"** لإضاءة تصوّرات جديدة في جهود عبد القاهر الجرجاني، خصوصا وأنّها تنفتح أمام الحداثة العربيّة، تؤطرها الإشكاليّة التّاليّة :

ـ كيف تلقى النقّاد العرب المعاصرون عبد القاهر الجرجاني ؟

ـ وكيف تلقوا قراءاته وتلقّيه ؟

ـ كيف تلقى عبد القاهر الجرجاني النّص الشّعري ؟

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

. لِمَ بقيت مقاربات عبد القاهر تفرض حضورها الجمالي ولم تفقد شرطها العلمي، رغم تقادم الزّمن ؟

تحاول هذه المداخلة بحث مقاربة الإشكالات ومناقشتها والإجابة عن بعض منها، أو إثارة الأسئلة حولها، والموازنة بين هذه الآراء المختلفة أحيانا، والمؤتلفة أحيانا أخرى، دونما إسقاط أو تحيّز أو عزل أو أدلجة، على الرّغم من أن عبد القاهر قارب أقدس نص لغوي لكنّه بآليّات اللغة نفسها، دون أن ينحرف به التّحليل إلى التّهويل أو التّهوين، حيث قاده منهج التّحليل والموازنة والحجاج إلى الإعلاء من النّص الشّعري للوصول إلى أن الآية القرآنية تكون أعلى وأرق وأجمل وقعا، عندما تكون كذلك، وتكون أقل جمالا حينما يقلبها على وجوه الأسلوبية المختلفة، ليصل إلى أن الألفاظ لا قيمة لها بذاتها.

عبد القاهر ونظريّة النّظم في دراسات النّقّاد العرب المحدثين:

عني بدراسة عبد القاهر ونظريّته في النّظم كثير من المحدثين، ولعلّ أوّل من تنبّه إلى ذلك هو الشّيخ محمد عبده، إذ قرأ كتابي الجرجاني (الأسرار والدّلائل) في الأزهر ورآهما أولى بالمدارسة من المتون وشروحها وحواشيها، لأنّهما مع عنايتهما بالتّحديد والتّقسيم يبنيان دراستهما على واقع النّصوص الأدبيّة، ولا صلة لهما بالجدل الذي لا نتيجة له. فضلا عن سهولة أسلوبهما وامتلائهما بالنّصوص الأدبيّة، ممّا يقرّب القارئ من تذوق البلاغة .

وتناول الدّكتور طه حسين عبد القاهر الجرجاني بالبحث في تمهيد كتاب " نقد النّثر " لقدامة بن جعفر، تحت عنوان " البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر "، وهو يرى أنّه تمّ على يده التّوفيق بين البيانيين : العربي واليوناني بل أقرّ في نهاية بحثه أن من يقرأ " دلائل الإعجاز " لا يسعه إلاّ أن يعترف بما أنفق عبد القاهر من جهد خصب صادم، في التّأليف بين قواعد النّحو العربي وبين آراء أرسطو العامّة في الجملة والأسلوب والفصول، وقد وفق عبد القاهر فيما حاول توفيقا يدعو إلى الإعجاب، وإذا كان الجاحظ هو واضع أساس البيان العربي حقًّا فعبد القاهر هو الذي رفع قواعده وأحكم بناءه [1].

وذهب الأستاذ أمين الخولي إلى أن عبد القاهر «متكلم فلسفي تارة، وهو أديب صانع كلام وناقده طورا . هو متكلّم أو بليغ كلامي الدرس في كتابه (دلائل الإعجاز)، يعني أوّلا وأخيرا بقضيّة الإعجاز فقط وينصرف إليها فيه انصرافا تامّا، فيجادل عنها جدلا منطقيًّا بارز النّزعة في أسلوبه. وعبد القاهر بليغ أديب في كتابه الآخر (أسرار البلاغة) لا يتحدث في قضيّة الإعجاز بكثير ولا قليل، بل لا يستشهد بالقرآن على نسبة كافيّة، وكأنّه يتحرّى ترك ذلك لما نشعر به من قلّة الشّواهد القرآنيّة في كتابه هذا قلّة ظاهرة، كما يبدو أسلوبه فيه خاليا من الأسلوب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنطقي الاستدلالي، ميالا إلى طول النّفس وبسطه العبارة والاعتماد على الحاسّة الفنيّة ويحكم الذّوق الأدبي »[2].

و يرى الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتاب " إحياء النحو " أن عبد القاهر الجرجاني قد رسم في كتابه " دلائل الإعجاز " طريقا جديدا، وأعطى تصوّرا جديدا للبحث النّحوي، فلم يهتم بأواخر الكلم وعلامات الإعراب، بل بيّن أنّ للكلام نظمًا، «و أن رعاية هذا النّظم واتّباع قوانينه هي السّبيل إلى الإبانة والإفهام، وأنّه إذا عدل بالكلام عن سنن هذا النّظم لم يكن مفهما معناه، ولا دالاّ على ما يراد فيه »[3] .

وانتهى الأستاذ إبراهيم مصطفى إلى أن الذي شغل النّاس عن نظم القرآن أمران هما :

أوّلا : الحالة التي كان عليها العلم والعلماء في القرن الخامس الهجري حيث كانت العقول قد هدمت وقيّدت بسلاسل من التّقليد لما سبق، فلم تقبل أي إبداع أو تجديد.

ثانيّا : المذهب الذّوقي الذي ركّز عليه عبد القاهر لسبر أغوار اللغة ومعرفة مكوّناتها «فقد تنبه الحس اللغوي لزنة الأساليب ودرك خصائصها، وقد كانت العجمة إذ ذاك غالبة بغلبة الأعاجم، والعلماء واقفون من علم العربيّة عند ظاهر لفظها، لا يبلغ بهم الحس اللّغوي أن يذوقوا ما ذاق عبد القاهر، ولا أن يدركوا ما أدرك»[4].

ويرى الأستاذ إبراهيم مصطفى أنّ إحياء النحو يكون بإبعاده عن هذا الجفاف الذي يعيش فيه، وذلك بمزجه بالنّواحي الفنيّة التي ذكرها عبد القاهر في (دلائل الإعجاز)، ويقول : ولقد آن لمذهب عبد القاهر أن يحيا، وأن يكون هو سبيل البحث النّحوي، فإنّ من المقول ما أفاق لحظة من التّفكير والتحور، وإنّ الحسن اللّغوي أخذ ينتعش ويتذوّق الأساليب، ويزنها بقدرتها على رسم المعاني، والتأثّر بها، من بعد ما عاف الصّناعات اللّفظيّة وسئم زخارفها [5].

ودرس الدكتور محمد مندور الجرجاني ونظريّته في كتابه " النّقد المنهجي عند العرب " و"في الميزان الجديد"، وهو أوّل من لفت الانتباه إلى الأسس اللّغويّة لمنهج الجرجاني قائلا : وفي الحق إنّ عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللّغويّة كلّها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ في أهميّته، مذهب يشهد لصاحبه بعبقريّة لغويّة منقطعة النّظير، وعلى أساس هذا المبدأ كوّن مبادئه في إدراك دلائل الإعجاز في القرآن وفي النّثر والشّعر العربي على السّواء.[6]

ويؤكّد محمد مندور صحّة وحداثة منهج عبد القاهر وأسبقيّته على المناهج اللّغويّة الحديثة في أوربا فيقول : «مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللّغة في أوربا لأيامنا، وهذا هو مذهب العالم السويسري فردناند دي سوسير الذي توفي سنة 1913م، ونحن لا يهمّنا الآن من هذا المذهب الخطير إلاّ طريقة استخدامه كأس لمنهج لغوي " فيلولوجي " في نقد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النّصوص، لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات»[7].

وهذا ما يتبيّن لنا ممّا جاء به عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) حيث يقول : «اعلم أنّ هناك أصلا أنت ترى النّاس فيه صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أنّ الألفاظ المفردة التي من أوضاع اللّغة، لم توضع لتصرف معانيها في أنفسها ولكن يضم بعضها إلى بعض فيصرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف وأصل عظيم، والدّليل على ذلك أنّا إن زعمنا أنّ الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنّما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها، لأدى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالته، وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرفها بها، حتى كأنهم لم يكونوا قالوا "فعل" و"يفعل" لما كنا نعرف الخبر في نفسه ومن أصله، ولو لم يكونوا قد قالوا "افعل" لما كنّا نعرف الأمر من أصله ولا نجده في نفوسنا، وحتى لو لم يكونوا قد وصفوا الحروف لكنا نجهل معانيها، فلا نعقل نفيا ولا نهيا ولا استفهاما ولا استثناء، كيف والمواضعة لا تكون ولا تتصوّر إلاّ على معلوم، فمحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم، ولأنّ المواضعة كالإشارة، فكما أنّك إذا قلت خُذ ذاك لم تكن هذه الإشارة لتعرف السّامع المشار إليه في نفسه، ولكن ليعلم أنّه المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتبصرها، كذلك حكم اللّفظ مع ما وضع له، ومن هذا الذي يشك أنا لم نعرف الرّجل والفرس والضرب والقتل إلاّ من أسامها ؟ لو كان ذلك مُصاغًا في العقل لكان ينبغي إذا قيل : "زيدٌ " أن نعرف المُسمّى بهذا الاسم من غير أن تكون قد شاهدته أو ذكر ذلك بصفة...و إذ قد عرفت هذه الجملة فاعلم أنّ معاني الكلام كلّها معانٍ لا تتصوّر إلاّ فيما بين شيئين، والأصل والأوّل هو الخبر، وإذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه عرفته في الجميع، ومن الثّابت في العقول، والقائم في النّفوس أنّه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به، ومخبر عنه... ومن أجل ذلك امتنع أن يكون لك قصد إلى فعل من غير أن تريد إسناده إلى شيء، وكنت إذا قلت «اضرب لم تستطع أن تريد منه معنى في نفسك من غير أن تريد الخبر به عن شيء فظهر أو مقدر مضمر، وكان لفظك به إذا أنت لم ترد ذلك وصوت تصوته سواء»[8].

ومن خلال هذا النّص البالغ الأهميّة نقف على فلسفة عبد القاهر اللّغويّة العميقة، وعن هذه الفلسفة صدرت كل آرائه في نقد النّصوص[9].

وقال في موضع آخر ـ في الميزان الجديد ـ :«منهج عبد القاهر يستند إلى نظريّة في اللّغة، أرى فيها ويرى معي من يمعن النّظر، أنّها تماشي ما وصل إليه علم اللّسان الحديث من آراء، ونقطة البدء نجدها في آخر " دلائل الإعجاز " حيث يقرّر المؤلّف ما يقرّره علماء اليوم من أنّ اللغة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات وعلى هذا الأساس العام بنى عبد القاهر الجرجاني كل تفكيره اللّغوي الفنّي »[10].

وكتب الدّكتور مصطفى ناصف عن النّظم في كتاب " دلائل الإعجاز " في مؤلفه " نظريّة المعنى في النّقد العربي "، وهو يرى أن فكرة النّظم في كتاب " الدلائل " ذات بذور في تفكير السّلف[11]، ويشير إلى أنّ كثيرين قد سبقوا عبد القاهر إلى القول بأنّ إعجاز القرآن لنظمه كالجاحظ والواسطي والخطابي والرّماني، ويتناول مذهب الصّرفة وموقف عبد القاهر الرّافض له بقوله :«و قد رفض عبد القاهر مفهوم الصّرفة، ولم يجد فيه ما يدعو إلى طول الجدال»[12].

ويأخذ على عبد القاهر أنّه لم يعن بنصوص القرآن مبيّنًا مدى تفوّق القرآن على غيرها من العبارات، ولو سألت أين الدّلائل في كتاب عبد القاهر لما كنت مسرفا، إن جهد عبد القاهر في تبيّن ملامح العبارات القرآنيّة لا يكاد يذكر بخير ذلك أن الكتاب أقرب في مجمله إلى حديث ما في اللغة[13].

والحديث عن نظريّة النّظم عند عبد القاهر الجرجاني بقوله «لسنا نريد أن نقصر من عمل عبد القاهر، ولكن الفرق بين اللّغة وفلسفتها والاستطيقا اللغويّة لم يكن متماسكا في عقل عبد القاهر فضلا على من هم دونه»[14].

وبحث الأستاذ محمد خلف إليه في كتابه "من الوجهة النّفسيّة في دراسته الأدب ونقده" كتاب "الدّلائل" بحثا في أسلوب تأليف الكلام ونظمه، وترتيب معانيه، وما يعرض لها من مظاهر معنويّة، محاولا أن ينقل الاهتمام من جانب اللّفظ إلى جانب المعنى، ويشير إلى أنّ عبد القاهر متلجلج في هذه القضيّة، بينما علّل المؤلّف كتاب (أسرار البلاغة) واقفا عند النّواحي النّفسيّة من هذا الكتاب، ثمّ يستخلص الفكرة الرّئيسيّة التي تبرز في (أسرار البلاغة) والتي يمكن اعتبارها نظريّته في الأدب، وهي «أن مقياس الجودة الأدبيّة تأثير الصورة البيانيّة في نفس متذوّقها »[15].

وهو جزء من تفكير سيكولوجي أعم يطبع الكتاب بطابعه عن طريق " الفحص الباطن " وتأكيد الجانب النفسي، أي الطريقة النّفسيّة التي يسمها المحدثون " التأمّل الباطني ".

ويعقد الأستاذ محمد خلف الله فصلا يدرس فيه تأثّر عبد القاهر في بعض نواحي تفكيره البلاغي والنّقدي بالثّقافة الإغريقيّة ولا سيما بحوث أرسطو ...و يوجز أهم النّواحي التي تعرض لها كتاباه: "الشّعر والخطابة" لكي يرى إلى أي مدى تأثّر بهما عبد القاهر، ثمّ يختم بحثه قائلا :«غير أنّ هذا التّأثير لا ينافي الأصالة، ولا ينفي عن عبد القاهر صفة العالم المبتكر، ولا يقلل من أهميّة نظريّته التي لم يسبقه سابق إلى عرضها، وتحقيقها وإفراد موضوعها بالدّرس، كما يفرد العالم الحديث موضوعا معينا للبحث والتّنقيب في رسالة خاصّة، فمنهجه وطريقة تأليفه إذن،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من أبرز المعالم في الدّراسات العربيّة النّقديّة، وشخصيّته العلمية في نظريته واضحة حقا بجانب شخصيّة "أرسطو" وإنّ قدرته على تسخير العلم في كشف أسرار الذّوق لدليل على أصالته وكفيل بخلوده»[16].

وعقد الدّكتور بدوي طبانة فصلا تحت عنوان " بلاغة عبد القاهر في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة " في كتابه "البيان العربي" بدأه بالموازنة بين اتجاه عبد القاهر ومعاصره ابن سنان الخفاجي صاحب "سر الفصاحة" وتحدّث عن المعاني والبيان في كتابي عبد القاهر وختم بحديث مُطوّل عن فكرة النّظم ... والواقع أنّ هذه الفكرة لم يكن عبد القاهر مخترعًا لها، وإن كان هو الذي بسط فيها القول، وأقام على أساسها فلسفة كتابه فقد سبقه إليها أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطي المتكلم (307هـ) الذي ألّف كتابًا سمّاه "إعجاز القرآن في نظمه".

وظهرت هذه الفكرة واضحة في الصراع الذي أثاره امتزاج الثقافات، وتعصب حَمَلَة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم، ومنها الثقافة النحوية، ومن مظاهر هذا الصراع تلك المناظرة الحادة التي قامت بين الحسن بن عبد الله المرزباني المعروف بأبي سعيد السيرافي وبين بشر بن متى بن يونس في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات.[17]

ويقول في موضع آخر: «و إذا كان عبد القاهر يدين بفكرة النظم، ولا يعترف بجزئياته، فإن له لفتة موفقة إلى ما ينبني على تلك الفكرة من أصول النقد الواعي».[18]

وعقد بعد ذلك فصلا للفظ والمعنى عند عبد القاهر، وحدّد فصلا لبلاغة التقديم والتأخير «و يرتب عبد القاهر على هذا أن المزايا في النظم إنما تكون بحسب المعاني والأغراض، بأنّ التقديم والتأخير كله يقوم على هذا الأساس».[19]

ويتناول الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه "النقد الأدبي الحديث"، قضية اللفظ والمعنى عند عبد القاهر ويذكر ردّه على أصحاب المعنى من سابقيه، وعلى أصحاب اللفظ من سابقيه، فيؤكد في النهاية قائلا:« ونعتقد أن عبد القاهر لم يقر من رجّحوا المعنى على اللفظ، على نحو ما شرحنا من آرائهم فيما سبق، بل كان من أنصار الصياغة من حيث دلالة هذه الصياغة على جلاء الصورة الأدبية».[20]ثم يتحدث عن النظم عند عبد القاهر ويرى أنه «قام في هذا الباب بجهد عظيم الخطر، فهو يقصد بالنظم ما يطلق عليه الغربيون علم التراكيب(syntaxe) ، وهو عندهم أهم أجزاء النحو، ويعرّفه عبد القاهر بأنه: "وضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو...».[21]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتطرّق بعد ذلك إلى التقويم الجمالي وصلته بالمضمون عند عبد القاهر ويذكر نماذج في نقد بندتو كروتشيه* وآرائه في علم الجمال، ويقول: «إنما ذكرنا من نقد بندتو كروتشيه ما يتصل اتصالا وثيقا بنقد عبد القاهر، لتوضيح فضل عبقرية عربية انتهت بعمق نظراتها في النقدي الأدبي إلى نتائج عالمية ذات قيمة خالدة، ولها صلة بفلسفة الجمال في النقد الحديث»[22]

وألّف الدكتور أحمد أحمد بدوي كتابا عن(عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية)تحدّث فيه عن حياة عبد القاهر وآثاره وفصّل القول في نظرية النظم، [23]ثم تحدّث عن إعجاز القرآن قبل عبد القاهر، وعبد القاهر بين معاصريه: ابن رشيق القيرواني وابن سنان الخفاجي.

وتناول الدكتور شوقي ضيف عبد القاهر الجرجاني في كتابه "البلاغة تطور وتاريخ"، فخصص فصلا لوضع عبد القاهر لنظرية المعاني وآخر لوضعه لنظرية البيان، وقال معلقا:« ولعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة، إذ استطاع أن يضع نظرتي علم المعاني والبيان وضعا دقيقا، أما النظرية الأولى فخص بعرضها وتفصليها كتابه "دلائل الإعجاز" وأما النظرية الثانية فخص بها وبمباحثها كتاب أسرار البلاغة».[24]

وعقد الدكتور إحسان عباس فصلا في كتابه "تاريخ النقد العربي عند العرب" تحدث فيه عن الانطلاق من فكرة الإعجاز إلى إقرار قواعد النقد والبلاغة، ثم بحث في قضية اللفظ تحت ضوء نظرية النظم للجرجاني، وانتهى إلى أن عبد القاهر ألف كتاب "دلائل الإعجاز" أولا ثم بعده كتاب "أسرار البلاغة"، قال:«...ومن مرحلة المعنى يتكون "علم المعاني" ومن مرحلة "معنى المعنى" يجيء "علم البيان" لهذا نستطيع أن نقول إن عبد القاهر بعد أن انتهى من كتابه "دلائل الإعجاز" الذي تحدّث فيه حول المعنى، حاول أن يخصّص كتابا لدراسة معنى المعنى فكان من ذلك كتابه "أسرار البلاغة"».[25]

وتحدث سيد قطب عن نظرية النّظم في كتابه "النقد الأدبي أصوله ومناهجه"، فقال:« لقد حاول أن يضع قواعد فنية للبلاغة والجمال الفني في كتابه "دلائل الإعجاز" كما حاول أن يضع قواعد نفسية للبلاغة في كتابه "أسرار البلاغة" وقد تأثر بالفلسفة الإغريقي وبالمنطق»[26]، بل ذهب أبعد من ذلك فأقرّ أن عبد القاهر «أول من قرر نظرية في تاريخ النقد العربي ويصحّ أن نسميها نظرية النظم».[27]

وانتقد سيد قطب إهمال عبد القاهر لدراسة الجانب الصوتي للألفاظ وفي ذلك يقول: «ومع أننا نختلف مع عبد القاهر في كثير مما تحويه نظريته هذه بسبب إغفاله التام لقيمة اللفظ الصوتية مفردا ومجتمعا مع غيره، وهو ما عبّرنا عنه بالإيقاع الموسيقي، كما يغفل الظلال الخيالية في أحيان كثيرة، ولها عندنا قيمة كبرى في العمل الفني...ومع هذا فإننا نعجب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

باستطاعته أن يقرر نظرية هامة كهذه علها الطابع العلمي دون أن يخلّ بنفاد حسه الفني في كثير من مواضع الكتاب».[28]

ومِنْ مَنْ أخذ عليه إهماله دراسه الجانب الصوتي أيضا.

محمد زكي العشماوي في كتابه "قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث" قائلا: « ولكن الذي نؤاخذ عليه عبد القاهر أنه في بحثه هذا الطويل، والذي يرتبط ارتباطا وثيقا باللغة ومكوناتها الشعورية والمعنوية لم يفسح المجال لدراسة الجانب الصوتي في اللغة، ودلالاته على المعنى بشكل إيجابي، فليس من شك في أن جانبا هاما من التجربة في الشعر يصوره الصوت والنغم».[29]بل ذهب أبعد من ذلك حين أكّد أنه: «لا ينبغي أن نكتفي في منهج لغوي كهذا بالإشارة إلى هذا الجانب مجرد إشارة، بل إنّ الموقف كان يحتم على عبد القاهر أن يكشف علاقة الأصوات باللغة ووظيفتها في أداء المعنى وعلى الأخص أنه مهتم لفرط حماسته وغيرته على تأكيد الوحدة بين اللفظ والمعنى، بإغفاله جانب اللفظ وإنكاره لقيمته من حيث هو صوت مسموع، ومع إيماننا بأن اللفظ المفرد لا يكتسب قيمته الصوتية أو الشعورية إلا إذا جاء في شكل سياق إلا أننا لا نذهب إلى إنكار قيمته الصوتية في الشعر جملة، كما أننا لا ينبغي أن نكتفي بمجرد الإشارة إلى أن الصوت جزء من المعنى بل ينبغي أن نحدد طبيعة العلاقات الإيجابية بين الأصوات ومعانيها».[30]

وتطرق الدكتور تمام حسان في كتابه "اللغة العربية بمعناها ومبناها "إلى نظرية النظم فقال: «و لقد كانت مبادرة العلامة عبد القاهر رحمه الله بدراسة النظم وما يتصل به من بناء وترتيب وتعليق من أكبر الجهود التي بذلتها الثقافة العربية قيّمة في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السياق أو التركيب، ومع قطع النظر من رأي شخصي في قيمة البلاغة العربية بعامة من حيث كونها منهجا من مناهج النقد الأدبي وعن صلاحيتها أو عدم صلاحيتها في هذا المجال أجدني مدفوعا إلى المبادرة بتأكيد أن دراسة عبد القاهر للنظم وما يتصل به تقف بكبرياء كتفا إلى كتف مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب وتفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي هذا مع الفارق الزمني الواسع الذي كان ينبغي أن يكون ميزة للجهود المحدثة على جهد عبد القاهر».[31]

وأفرد الدكتور أحمد مطلوب لعبد القاهر الجرجاني كتابا عنونه "عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده"، خصّص الفصل الأول منه للتعريف بعبد القاهر ونشاطه الثقافي وإنتاجاته فعرف بمحتواها وذكر المصادر القديمة التي أشارت إلها أو اعتمدتها، أما الفصل الثاني فقد خصّصه لنظرية النظم، أما باقي الفصول فقد كانت ذات صبغة بلاغية وأدبية ترتبط بنظرية النظم.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

ويرى الدكتور أحمد مطلوب أن معظم ما بحثه عبد القاهر في كتابيه من الموضوعات التي تحدث عنها السابقون ولكن ميزته أنه استطاع أن يجمع شتاتها ويوحدّ بينها في إطار نظريته وان يضع الحدود والرسوم الواضحة والتقسيمات القائمة على استقراء النصوص.[32]

وألّف الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي كتابا في نظرية النظم عند الجرجاني تحت عنوان "معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني "استهله بفصل عن عبد القاهر في الرسالة الشافية والدلائل والأسرار، يلاحظ قلة الشواهد والآيات القرآنية وتحليلها، وهذا الملاحظة قد وقف عليها الأستاذ أمين الخولي وتبعه فيها الدكتور مصطفى ناصف، في أن عبد القاهر لم يُعن بنصوص القرآن في كتابه الأسرار...ويرى الرأي نفسه الدكتور أحمد بدوي ويؤيده، لتوثيق هذا قمنا بإحصاء الآيات القرآنية التي استخدمها عبد القاهر في رسالته وكتابيه، فكانت كالآتي:

1.وردت في الرسالة الشافية ثمان آيات من خمس سور، وتقع هذه الرسالة في خمس وأربعين صفحة من الحجم المتوسط.

2.وفي كتاب "دلائل الإعجاز" يورد عبد القاهر مائة وستا وستين آية، في خمس وأربعين سورة، ويقع كتاب "الدلائل" في حدود ثلاثمائة وأربع وستين صفحة من الحجم المتوسط، وقلة ورود الآيات، وعدم التعرض إلى تفسيرها، أمر واضح في هذا الكتاب، ولا أظنّ أن عبد القاهر قد خالف بين عنوان الكتاب وهو "دلائل الإعجاز" ما جاء فيه على غير ذلك، كما ظهر لبعض الباحثين، وذلك لأنّ العنوان من شقين، الأول في "الدلائل" وهي العلامات والوسائل والبدايات والأسس والركائز ثم إضافة "الدلائل" إلى "الإعجاز" وهو إعجاز القرآن، ومعنى عنوان الكتاب أنه في غير تفسير الإعجاز القرآني، وإنما في وسائل هذا الإعجاز وفي طرائق فهمه.

3. وفي كتابه "أسرار البلاغة" أورد عبد القاهر تسعا وثلاثين آية من خمس وعشرين سورة، وهذا يفسّر ما ذهبنا إليه من أن عبد القاهر ما انشغل بتفسير البيان القرآني، ولكنه اهتم بتفسير الوسيلة وإيضاحها...وهذا الفهم يؤدي إلى دفع "تهمة" قصور عبد القاهر في استخدام الآيات القرآنية وعدم تفسيره البيان القرآني.[33]

و بقصد تعريف القارئ العربي بعلم من أعلام تراثنا البلاغي، تناول الدكتور أحمد علي دهمان «الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا وتطبيقا» بغية الوقوف على كيفية دراسة عبد القاهر للصورة البلاغية في ظل نظرية النّظم وتبيان طبيعتها، لذا بدأ بالتفتيش عن الأساس النظري لفكر عبد القاهر اللغوي والبلاغي ليختم بتقويم منهجي لمنهج عبد القاهر بين القدماء والمحدثين، عن طريق الربط بين الجانبين النظري والتطبيقي «لأنّ هذا الربط يعطي قيمة كبرى لدراسة تبرز الأصالة، وتوضح جوانبها، ولاسيما عندنا قد ثبت مثل عبد القاهر، الذي لم يقف فكره النقدي عند "التنظير" وحده، وغنما جاوزه إلى الذوق والتحليل، للوصول

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى القيم الفنية في الأثر الأدبي، وردها إلى عناصر في صياغته ونظمه، الأمر الذي جعل لبحوثه قيمة خاصة، لا نعثر على شبيه لها في موروثنا النقدي والبلاغي تقريبا.[34]

ودرس الدكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفة الذوق البلاغي لدى عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم من خلال مؤلفه "تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني" استهله بالحديث عن الذوق البلاغي قبل عبد القاهر ثم انتقل لأصالة الذوق البلاغي مع عبد القاهر وفي ذلك يقول: «و جاء الشيخ عبد القاهر الجرجاني، ودرس النظم ووضع يده على موطن الفكر في النظم والترتيب، وكشف عن الإثبات وصوره العجيبة، وحدد دور الألفاظ، وموقف المعاني الشعرية ومكانة الصور التي تبرز فيها تلك المعاني.

وتحت ضوء نظريته في النّظم دفع أخطاء السابقين في تفسير البيان العربي بعامة، وناقش آراء اللفظيين، وبيّن فضل المفسّر على التفسير ووحّد موقف منشد النصوص».[35]

و ألّف الدكتور درويش الجندي كتابا عن «نظرية النظم عند عبد القاهر تحت عنوان "نظرية عبد القاهر في النظم "استهله بدراسة لبيئة عبد القاهر وعصره وثقافته، وثنى بالتأريخ لقضية الإعجاز من القرن الأول إلى القرن الخامس الهجري زمن عبد القاهر.

عرّج الدكتور درويش الجندي بعد ذلك للحديث عن نظرية النّظم عند الجرجاني مبيّنا أسسها ومعالمها شارحا أهدافها المتمثلة في:

أ. بيان أن جوهر الكلام هو المعنى القائم في النفس.

ب. ربط البلاغة بالإعجاز.

والحديث في هذا البحث أنه استعان بالبحوث الكلامية في تفسير نظرية عبد القاهر في النظم وربط هذه النظرية بتلك البحوث ربطا وثيقا».[36]

وفي كتابه "المذاهب الأدبية"[37] يتعرض فيه الدكتور ماهر حسن فهمي لنظرية النظم، فيتحدث عن قضية اللفظ والمعنى من حيث نشأتها وأهميتها، ويؤكد أن مقاييس القدماء النقدية كانت مبنية على أساس موقفهم منها . ويعتبر عبد القاهر إمام للمذهب التصويري، وهو يبني رأيه هذا على أساس من قول لعبد القاهر في الأسرار، يربط فيه التصورات والتخيلات ويعتبر ذلك بذرة المذهب التصويري عنده، ويشير كذلك إلى الصفة التحليلية في منهجه، وكيف تطور النقد العلمي العربي على يده، عبد القاهر كان رائدا . ولاشك . في فهمه لطبيعة الصورة، ولكن من الشطط أن نعده رائدا لمذهب أدبي على ما ندرك من مفهوم " المذهب " على أيامنا هذه .

و في كتابه " من أسرار اللغة "[38] يلاحظ الدكتور إبراهيم أنيس على عبد القاهر في علاجه لتنظيم الكلام أمورا هي :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1 . ميله ـ على طريقة المتكلمين ـ إلى الجدل المنطقي الفلسفي ومحاولته التقريب بين أساليب الكلام والمنطق العقلي العام، ولذلك أكثر من التمثيل بعبارات من صنعه، لا نكاد نرى شواهد لها فيما رُوي من اللغة .

2 . نرى عبد القاهر في الكثير من مواضع الكتاب أديبا ناقدا أكثر منه لغويا، فهو يشبّه نظم الكلام وترتيب الكلمات بنظم اللؤلؤ والجواهر في سمط نفيس، ثمّ يعود ويشبهه بالأصباغ التي تُعمل منها الصور والنقوش، حين يؤلف منها الفنان الماهر الشعرية في كتابه فهو أشبه بنقاد زمانه حين يحاولون التعريف بنواح من الجمال في قول مأثور .

3 . كان عبد القاهر يهدف بعلاجه لنظم الكلام إلى أمور أوسع مما تهدف إليه، ومما يهدف إليه اللغوي الأوربي حين يعالج ترتيب الكلمات في الجمل، فنرى عبد القاهر يعقد فصلا عنانه : (في النظم يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع)، عرض فيه لأنواع من البديع وطرق البيان، وبعد فيه عن النظام النحوي والتركيب اللغوي من حيث صحته أو خطؤه، فهو يتلمس في النظم نواحي من الجمال وأمورا لطيفة دقيقة .

4 . لم يفرق عبد القاهر ـ كغيره من اللغويين القدماء ـ بين ترتيب الكلمات في الجمل النثرية وترتيبها في الأبيات الشعرية .

و يرى الدكتور إبراهيم أنيس أنه يندر من قصر كتابا مستقلا أو فصولا من كتاب عن نظام الجملة العربية حتى جاء عبد القاهر فعُني بهذا الأمر كل العناية في كتابه (دلائل الإعجاز) .

و كتب الأستاذ عبد القاهر المهيري بحثا رصينا في حوليات الجامعة التونسية بعنوان (مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة)، انتهى فيه إلى أن عبد القاهر " رأى في النظم أساس الإعجاز ومحط البلاغة، ورفض أن يكون مجرد ترديد هذا المصطلح كافيا للإقناع به، أخذ كلمة النظم عن سلفه، وضمنها مفهوما يمدّ الدارس بوسائل علمية للبحث والتقييم، ولقد تسنى له ذلك لأنه ميّز بين اللغة والكلام، بين ما تشترك فيه المجموعة وما يختص به الفرد، بين ما يمكن أن يضبط وتستقصى وسائله وما هو خلق مستمر وابتكار متواصل، نصوص مبدأ بلاغة العبارة الذي يوهم بأن وسائل حسن الكلام يمكن أن تحصى بمبدأ بلاغة السياق الذي يفتح المجال واسعا للاختراع والإبداع، فكان صاحب منهج بينما اكتفى غيره بتفكيك الكلام وإفراد بعض جوانبه بالعناية "[39]

هذه بعض الدراسات الحديثة التي تناولت نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وهي تهدف إلى بيان عظمة عبد القاهر بالنسبة للدراسات المعاصرة من خلال دراسته القيمة للتراث الأدبي وتحليله ومناقشته وكيف تصرف، فأثبت ونفى، وقيد وأطلق، وعرف نكر، وقدم وأخر، وفضل أداة على أخرى، ولفظا على آخر، واستعار وشبه، وكنى وصرح، وذكر وأضمر، وأوجز وأطنب،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

......الخ، كما يقول الشيخ نفسه. وقد ربط كل هذه الوجوه والفروق بغرض الشاعر ومدى التحامها به أو قربها أو بعدها عنه، كل ذلك بقريحة نفاذة وذوق بلاغي سليم، ومعرفة واسعة بكلام العرب وطرق القول عندهم.

خاتمة: لقد تمحور هذا البحث حول شخصية عبد القاهر الجرجاني العلمية، وما ظهر من هذه العبقرية الفذّة، فقد كانت ثقافته عميقة جعلته يحيط بالفكر الإسلامي والعربي إحاطة الخبير في جميع نواحيه، في اللغة والأدب والدين والمنطق .

جعل من الماضي الثقافي لحصيلة أربعة قرون خلت قبله، مادة يشكل منها حاضرا ومصيرا، عايش السابقين ليكون منهم ومعهم، وانتهت إليه علوم عصره، فنفخ فيها من روحه العلمي، وطور مناهجها، ودفعها إلى الأمام آمادا بعيدة، وأصبح من صفوة العلماء الباحثين والدارسين المحققين، ومن جهابذة اللغة العربية وحماتها منهجيا وتطبيقيا، يحرص على إثبات عبقريتها وجماليتها بتعزيز من النظم والإعجاز.

إنّ الحداثة العربية ـ وهي المقودة وليست القائدة ـ في انبهارها بالمنهج الغربي، لا تبتعد كثيرا عن محيطها الغربي، وهي تدرس التراث البلاغي العربي، فهي تطبقه كما جاء عند أهله على نصوص تراثنا العربي، وقد اعتمد الدارسون الغربيون في دراساتهم على دراسة الدرس اللغوي بمفرده، يبحثونه في فلسفته وفي ظاهرته وقوانينه وقواعده، وأخذوا ينظّرون له، ويمثل هذا الجانب دي سوسير الذي درس اللغة ولسانها، واستفاد من منهجه تشومسكي وغيره، من هذه الناحية كان جانب التفوق حليف عبد القاهر الجرجاني، الذي جعل من النص الأدبي ميدانه الفسيح في استدراج الفرضيات، واستنتاج القاعدة أو النظرية، وخص بجهوده (نظرية النظم)، التي تتوافق في اتساعها لتشمل الدراسة الحديثة في أدب (الأسلوبية) وتثبت علاقتها بالنظم، وإذا كانت لنا من نتائج تستنبط في هذه الورقة فهي في النقاط الآتية :

أولا : إنّ الأسلوبية وما لها من قدرة على احتواء النص الأدبي بوظيفته الدلالية والجمالية التعبيرية، فإنّها تتضمن دراسة التراكيب اللغوية وتربط العلاقات الداخلية والخارجية للنص الأدبي، واللغوي، لأنّ النص ذاته هو خطاب مركب من عدّة عناصر نحوية وبلاغية ودلالية، كل ذلك له إرهاصات ودلالات، بل وصور مماثلة في نظرية النّظم، فلا تختلف آراء عبد القاهر عما جاء به دي سوسير وغيره.

ثانيا: إنّ ما توصلّت إليه نظريات القراءة والتلقي من حقائق ينفتح النص أمامنا بأدواتها وإجراءاتها، ما هي في الحقيقة إلا ذاك الشراب القديم المعتّق من زمن عبد القاهر، حيث تغيّرت فقط الآنية التي صبّ فيها، أليس الانزياح أو الانحراف هو العدول؟ أليس محور التركيب هو الضم والمجاورة؟ أليس مفهوم الصياغة هو الأسلوب بمفهومه الحداثي؟ ألم يقل عبد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القاهر:«أنّ اللفظة خارج السياق ميتة"؟ أليس مفهوم الكناية هو نفسه المفهوم الحداثي البرّاق: الحضور والغياب؟.

رابعا: لقد تلقى نقادنا العرب عبد القاهر وتلقّيه للشعر وللنص القرآني بكثير من الانبهار، فهم لم يجدوا فيه أثناء دراستهم لكتابيه الأسرار والدلائل أي اختلاف يذكر عما تلقوه عن الدراسات الغربية ودورها، بل تفوّق عليهم عبد القاهر شهدوا لها هم أنفسهم قبل نقادنا.

خامسا: لقد استطاع عبد القاهر أن يجمع شتات الموضوعات التي تحدّث عنها السابقون، ويوحّد بينها في إطار نظريته، وأن يضع الحدود والرسوم الواضحة، والتقسيمات القائمة على استقراء النصوص، وعبد القاهر حين درس هذه الموضوعات لم يُوحدها بل لاحظها في كلام العرب ودراسات المتقدّمين، وكان فضله الكبير يتجلى في تنظيمها، وإرجاعها إلى أسس عامة، في نظم الكلام من ذلك احتواءه للجمع بين الأدب والنقد والنحو والبلاغة في عبارته "توخي معاني النحو"، ولذلك كان له منهجه الواضح فيها، «القائم على الاستقراء الذوقي الشامل لتكاد بحوثه فيها تقترب في دقتها وتسلسل مراحلها من أسلوب العصر الحاضر في بحوثه العلمية»، كما يرى الدارسون المعاصرون.

سادسا: تجاوز طرح نظرية النّظم إلى منظور حداثي جديد نتيجة لتواصل البحث اللغوي، وذلك خلال اعتنائه بالجوانب الجمالية لمختلف النصوص.

سابعا: إن امتلاك ناصية الحاضر والمستقبل يتوقّف على إعادة تأسيس شرعية الماضي في زمن لا ماضي له ولا حاضر له، بل قد تُسهمُ بقصورنا في قراءة ماضينا إلى تأجيل الإرادي لمستقبلنا، وحينها نعيش على هامش التاريخ، يفعل بنا ما يشاء، بعدما كنا الذين نصنع التاريخ.

وعلى الله قصد السبيل

مراجع البحث وإحالاته:

---

[1] . طه حسين، مقدمة نقد النثر لقدامة بن جعفر، البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط/1995م، ص : 30.

[2] . أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والأدب، دار المعرفة، ط/1، القاهرة، 1961م، ص :162 .163.

[3] . إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1938م، ص : 16.

[4] . إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنّشر، ط:1983م، ص: 16.

[5] . المصدر السابق، ص : 19 . 20.

[6] . محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر، الفجالة، القاهرة، د.ت، ص:334.

[7] . محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص : 335.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[8]. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص : 323.

[9]. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنّشر، الفجالة، القاهرة، ص :334 . 335.

[10]. محمد مندور، في الميزان الجديد، مكتبة نهضة مصر، د.ت، ط/3، ص : 175.

[11]. مصطفى ناصف، نظريّة المعنى في النقد العربي، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط/2، 1981م، ص:14.

[12]. المصدر نفسه، ص : 29.

[13]. المصدر نفسه، ص : 30.

[14]. المصدر نفسه، ص : 30 . 31.

[15]. محمد خلف الله، من الوجهة النفسيّة في دراسة الأدب ونقده، معهد البحوث والدّراسات العربيّة، ط:1970م، القاهرة، ص : 42 . 43.

[16]. محمد خلف الله، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، ص : 43.

[17]-بدوي بطانة، البيان العربي، دار العودة، بيروت، ط05، ص:165-166.

[18]-المصدر نفسه، ص:179.

[19]-بدوي طبانة، البيان العربي، ص:179.

[20]-محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، د، ت، ص:268.

[21]-المصدر نفسه، ص:277.

*بندتو كروتشيه:هو مؤرخ ورجل سياسي وإيطالي المولد(1866-1952)، كان من رؤساء الحزب الليبرالي الإيطالي، له كتاب: المجمل في فلسفة الفن، ترجمة سامي الدروبي (انظر: Larousse)

[22]-محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص:291.

[23]-أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، 1962، ص:101.

[24]-شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط12، 2003، ص:160.

[25]-إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط01، 1907م، ص:429.

[26]-سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، 1983م، ص:126.

[27]-المصدر نفسه، ص:127.

[28]-المصدر نفسه، ص:128.

[29]-محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة المصرية، بيروت، 1984م، ص:305.

[30]-المصدر نفسه، ص:305.

[31]-تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م، ص:18-19.

[32]-أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ط01، بيروت، لبنان، 1973م، ص:108.

[33]-محمد بركات حمدي أبو علي، معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، عمان، الأردن، 1984م، ص:14-15-16.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[34]-أحمد علي دهمان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1986م، دمشق، ص:12-13.

[35]-عبد العزيز عبد المعطي عرفة، تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، ط01، 1983م، ص:60.

[36]-درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم مكتبة نهضة مصر، الفجالة، 1960م، ص:11.

[37]-ماهر حسن فهمي، المذاهب النقدية، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1962م، ص:31.

[38] . إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص : 286- 287

[39] عبد القادر المهيري، حوليات الجامعة التونسية، العدد11، ط 1974م، ص:83.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com